سـورة محمد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مدنية في قول ابن عباس، ذكره النحاس. وقال الماوردي: في قول الجميع إلا ابن عباس وقتادة فإنهما قالا: إلا آية منها نزلت عليه بعد حجة الوداع حين خرج من مكة، وجعل ينظر إلى البيت وهو يبكي حزنا عليه، فنزل عليه ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ﴾ [محمد: ١٣]. وقال الثعلبي: إنها مكية، وحكاه ابن هبة الله عن الضحاك وسعيد بن جبير. وهي تسع وثلاثون آية. وقيل ثمان.

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿١﴾ ﴾

قال ابن عباس ومجاهد: هم أهل مكة كفروا بتوحيد الله، وصدوا أنفسهم والمؤمنين عن دين الله وهو الإسلام بنهيهم عن الدخول فيه، وقاله السدي (١). وقال الضحاك ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ عن بيت الله بمنع قاصديه (٢). ومعنى ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾: أبطل كيدهم ومكرهم بالنبي ﷺ، وجعل الدائرة عليهم؛ قاله الضحاك (٣). وقيل: أبطل ما عملوه في كفرهم بما كانوا يسمونه مكارم، من صلة الأرحام وفك الأسارى وقرى الأضياف وحفظ الجوار. وقال ابن عباس: نزلت في المطعمين ببدر، وهم اثنا عشر رجلا: أبو جهل، والحارث بن هشام، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبي وأمية ابنا خلف، ومنبه ونبيه ابنا الحجاج، وأبو البختري بن هشام، وزمعة بن الأسود، وحكيم بن حزام، والحارث بن عامر بن نوفل (٤).

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال ابن عباس ومجاهد: هم الأنصار (٥). وقال مقاتل: إنها نزلت خاصة في ناس من قريش (٦). وقيل: هما عامتان فيمن كفروا وآمن. ومعنى ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾: أبطلها. وقيل: أضلهم عن الهدى بما صرفهم عنه من التوفيق. ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من قال إنهم الأنصار فهي المواساة في مساكنهم وأموالهم. ومن قال إنهم من قريش فهي الهجرة. ومن قال بالعموم فالصالحات جميع الأعمال التي ترضي الله تعالى. ﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ لم يخالفوه في

(١) ضعيف إلى ابن عباس ـ رضي الله عنهما : وفيه أبو يحيى القتات : لين الحديث ورواه الطبري (٢٦/ ٤٠) في تفسيره. والراوي إليه مجاهد، وزاد السيوطي عزوه في الدر (٦/ ١٩) لابن مردويه وعبد بن حميد ، والحاكم.

(٢) فتح القدير (٦/ ٤٧٠) للشوكاني غير مسند .

(٣) كذا عند البغوي (٧/ ٢٧٤) في التفسير بلا سند .

(٤) هذا كلام نقله الماوردي (٤/ ١٢٦) في النكت والعيون ، عن مقاتل لا عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما .

(٥) ضعيف : وانظر : الطبري (٢٦/ ٤٠) في تفسيره .

(٦) مرسل : وانظر : النكت والعيون (٤/ ١٢٦) للماوردي.

شيء، قاله سفيان الثوري (١). وقيل: صدقوا محمدا ﷺ فيما جاء به. ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ يريد أن إيمانهم هو الحق من ربهم. وقيل: أي إن القرآن هو الحق من ربهم، نسخ به ما قبله ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي ما مضى من سيئاتهم قبل الإيمان. ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي شأنهم، عن مجاهد وغيره (٢). وقال قتادة: حالهم (٣). ابن عباس: أمورهم (٤). والثلاثة متقاربة وهي متأولة على إصلاح ما تعلق بدنياهم. وحكى النقاش أن المعنى أصلح نياتهم، ومنه قول الشاعر:

فإن تُقبلي بالودّ أقبل بمثله وإن تدبري أذهب إلى حال باليا

وهو على هذا التأول محمول على صلاح دينهم. ﴿والبال﴾ كالمصدر، ولا يعرف منه فعل، ولا تجمعه العرب إلا في ضرورة الشعر فيقولون فيه: بالات. المبرد: قد يكون البال في موضع آخر بمعنى القلب، يقال: ما يخطر فلان على بالي، أي على قلبي. الجوهري: والبال رخاء النفس، يقال فلان رخي البال. والبال: الحال؛ يقال ما بالك. وقولهم: ليس هذا من بالي، أي مما أباليه. والبال: الحوت العظيم من حيتان البحر، وليس بعربي. والبالة: وعاء الطيب، فارسي معرب، وأصله بالفارسية بيلة. قال أبو ذؤيب:

كأن عليها بالةً لَطَمِيّة لها من خلال الدَّأْيَتَيْن أريجُ

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ ﴿ذَلِكَ﴾ في موضع رفع، أي الأمر ذلك، أو ذلك الإضلال والهدى المتقدم ذكرهما سببه هذا. فالكافر اتبع الباطل، والمؤمن اتبع الحق. والباطل: الشرك. والحق: التوحيد والإيمان. ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ أي كهذا البيان الذي بين يبين الله للناس أمر الحسنات والسيئات. والضمير في ﴿أَمْثَالَهُمْ﴾ يرجع إلى الذين كفروا والذين آمنوا.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ۟ا بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ لما ميز بين الفريقين أمر بجهاد الكفار. قال ابن عباس: الكفار المشركون عبدة الأوثان (٥). وقيل: كل من خالف دين الإسلام من منشرك أو

(١) كذا عند البغوي (٧/ ٢٧٤) في تفسيره غير مسند.
(٢) صحيح إلى مجاهد: الطبري (٢٦/ ٤١) وزاد السيوطي في الدر (٦/ ٢٠) عزوه إلى عبد بن حميد.
(٣) صحيح إليه: السابق (٢٦/ ٤١). (٤) ضعيف: وقد سبق.
(٥) هكذا بغير سند عند الماوردي (٤/ ١٢٧) في النكت والعيون.

كتابي إذا لم يكـن صاحب عهد ولا ذمة، ذكـره الماوردي. واختاره ابن العربي وقـال: وهو الصحيح لعموم الآية فيه. ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾مصدر. قال الزجاج: أي فـاضربوا الرقاب ضربا. وخص الرقاب بالذكر لأن القتل أكثر ما يكون بها. وقيل: نصـب على الإغراء. قال أبو عبيدة: هو كقولك يا نفس صبـرا. وقيل: التقديـر اقصدوا ضرب الرقـاب. وقال﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ولم يقل فاقتلوهم، لأن في العبـارة بضرب الرقـاب من الغلظة والشدة مـا ليس في لفظ القتل، لما فـيه من تصوير القـتل بأشنع صوره، وهو حز العنق وإطارة العضو الذي هو رأس البدن وعلوه وأوجه أعضائه.

الثانية: قوله تعالى﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾أي أكثـرتم القتل. وقد مضى في «الأنفـال» عند قوله تعالى﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧]. ﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ أي إذا أسـرتموهم. والوثاق اسم من الإيثاق، وقد يكون مصدرا، يقال: أوثقته إيثاقا ووثاقا. وأما الوثاق ـ بالكسر ـ فهو اسم الشيء الذي يوثق به كالرباط؛ قـاله القشيري. وقـال الجوهري: وأوثقه في الوثاق أي شده، وقـال تعالى﴿فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾. والوثاق ـ بكسر الواو ـ لغـة فيه. وإنما أمر بشد الوثاق لـئلا يفلتوا. ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ﴾ عليهم بالإطلاق من غيـر فدية ﴿وَإِمَّا فِدَاءً﴾. ولم يذكر القـتل ها هنا اكتـفاء بما تقدم من القـتل في صدر الكلام، و﴿مَنًّا﴾و﴿فِدَاءً﴾نصب بإضمار فعل. وقرئ «فَدى» بالقـصر مع فتح الفاء، أي فإما أن تمنوا عليهم منا، وإما أن تفادوهم فداء.

روي عن بعـضهم أنه قـال: كنت واقفـا على رأس الحـجاج حين أتي بالأسـرى من أصحـاب عبدالرحمن بن الأشعث وهم أربعة آلاف وثمانمائة فقتل منهم نحوًا من ثلاثة آلاف حتى قدم إليه رجل من كندة فقال: يا حجاج، لا جازاك الله عن السنة والكرم خيرا قال: ولم ذلك؟ قال: لأن الله تعالى قال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ في حق الذين كفروا، فوالله ما مننت ولا فديت؟ وقد قال شاعركم فيما وصف به قومه من مكارم الأخلاق:

ولا نقتل الأسرى ولكن نفكهم إذا أثقل الأعناقَ حملُ المغارمِ

فقال الحجاج: أف لهذه الجيف أما كـان فيهم من يحسن مثل هذا الكلام؟ خلوا سبيل من بقي. فخلي يومئذ عن بقية الأسرى، وهم زهاء ألفين، بقول ذلك الرجل.

الثالثة:واختلف العلماء في تأويل هذه الآية على خمسة أقوال:

الأول: أنها منسـوخة، وهي في أهل الأوثان، لا يجوز أن يفادوا ولا يمن عليـهم. والناسخ لها عندهم قوله تعالى﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] وقوله﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٧] وقوله﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] الآية، قاله قتادة والضحاك والسدي وابن جريج والعوفي عن ابـن عباس، وقاله كثـير من الكوفيين (١). وقال عبـدالكريم الجوزي: كتب إلى أبي بكر في أسـير أسر، فـذكروا أنهم التمسـوه بفـداء كذا وكذا، فـقال اقتلوه، لـقتل رجل من المشركين أحب إلي من كذا وكذا.

الثاني: أنها في الكفار جمـيعا. وهي منسوخة على قول جمـاعة من العلماء وأهل النظر، منهم

---

(١) تفسـير البغـوي (٧/ ٢٧٤) وهو صحيح إليـهم ، والقول إلى ابن عـباس ضعـيف.ورواه الطبري (٢٦/ ٤٢) في تفسيره.

قتادة ومجاهد. قالوا: إذ أسر المشرك لم يجز أن يمن عليه، ولا أن يفادى به فيرد إلى المشركين، ولا يجوز أن يفادى عندهم إلا بالمرأة، لأنها لا تقتل. والناسخ لها ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُمُوهُمْ﴾[١] [التوبة: ٥] إذ كانت براءة آخر ما نزلت بالتوقيف، فوجب أن يقتل كل مشرك إلا من قامت الدلالة على تركه من النساء والصبيان ومن يؤخذ منه الجزية. وهو المشهور من مذهب أبي حنيفة، خيفة أن يعودوا حربا للمسلمين. ذكر عبدالرزاق أخبرنا معمر عن قتادة ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ قال: نسخها ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٧]. وقال مجاهد: نسخها ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]. وهو قول الحكم[٢].

الثالث: أنها ناسخة، قاله الضحاك وغيره. روى الثوري عن جويبر عن الضحاك ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] قال: نسخها ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾. وقال ابن المبارك عن ابن جريج عن عطاء ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ فلا يقتل المشرك ولكن يمن عليه ويفادى، كما قال الله عز وجل. وقال أشعث: كان الحسن يكره أن يقتل الأسير، ويتلو ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾[٣]. وقال الحسن أيضا: في الآية تقديم وتأخير، فكأنه قال: فضرب الرقاب حتى تضع الحرب أوزارها. ثم قال ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾. وزعم أنه ليس للإمام إذا حصل الأسير في يديه أن يقتله، لكنه بالخيار في ثلاثة منازل: إما أن يمن، أو يفادي، أو يسترق.

الرابع: قول سعيد بن جبير: لا يكون فداء ولا أسر إلا بعد الإثخان والقتل بالسيف، لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧]. فإذا أسر بعد ذلك فللإمام أن يحكم بما رآه من قتل أو غيره.

الخامس: أن الآية محكمة، والإمام مخير في كل حال، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وقاله كثير من العلماء منهم ابن عمر والحسن وعطاء[٤]، وهو مذهب مالك والشافعي والثوري والأوزاعي وأبي عبيد وغيرهم. وهو الاختيار، لأن النبي ﷺ والخلفاء الراشدين فعلوا كل ذلك، قتل النبي ﷺ عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث يوم بدر صبرا، وفادى سائر أسارى بدر، ومن على ثمامة بن أثال الحنفي وهو أسير في يده[٥]، وأخذ من سلمة بن الأكوع جارية ففدى بها أناسا من المسلمين، وهبط عليه عليه السلام قوم من أهل مكة فأخذهم النبي ﷺ ومن عليهم، وقد من على

(١، ٢) تفسير البغوي (٧/ ٢٧٤) وهو صحيح إليهم، والقول ابن عباس ضعيف ورواه الطبري (٢٦/ ٤٢) في تفسيره. وانظر الطبري (٢٦/ ٤١، ٤٢).

(٣) كذا عند الطبري (٢٦/ ٤٣) في تفسيره، والسند إليه صحيح إن كان هو عطاء الخراساني وإن سلم من عنعنة ابن جريج وهو مدلس.

(٤) والآراء من البغوي (٧/ ٢٧٤، ٢٧٥) في تفسيره، والطبري (٢٦/ ٤٢، ٤٣) في تفسيره، والسند إلى ابن عباس منقطع لأنه من طريق علي بن أبي طلحة الوالبي.

قلت: واختار الطبري أن الآية غير منسوخة وإنما هي محكمة وهو ما اختاره القرطبي هنا، واختاره ابن كثير (٧/ ٢٣٧) في تفسيره، وقال: «وزاد الشافعي ـ رحمه الله عليه ـ فقال: الإمام مخيرٌ بين قتله ـ يعني الأسير ـ أو يمن عليه أو مفاداته» انتهى.

(٥) **متفق عليه**: البخاري (٩٤٣٧٢ في المغازي، ومسلم (١٧٦٤) في الجهاد والسير، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

سبي هوازن . وهذا كله ثابت في الصحيح، وقد مضى جميعه في «الأنفال»[١] وغيرها.

قال النحاس: وهـذا على أن الآيتين محكمتان مـعمول بهما، وهو قـول حسن، لأن النسخ إنما يكون لشيء قاطع، فإذا أمكن العمل بالآيتين فلا معنى للقول بالنسخ، إذا كان يجوز أن يقع التعبد إذا لقينا الذين كفروا قتلناهم، فإذا كان الأسر جاز القـتل والاسترقاق والمفاداة والمن، على ما فيه الصلاح للمسلمين. وهذا القول يروى عن أهل المدينة والشافعي وأبي عـبيد، وحكاه الطحاوي مذهبا عن أبي حنيفة، والمشهور عنه ما قدمناه، وبالله عز وجل التوفيق.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ قال مجاهد وابن جبير: هو خروج عيسى عليه السلام[٤]. وعن مجـاهد أيضا: أن المعنى حتى لا يـكون دين إلا دين الإسلام، فيـسلم كل يهودي ونصراني وصاحب ملة، وتأمن الشاة من الذئب[٥]. ونحوه عن الحسن والكلبي والفراء والكسائي. قال الكسائي: حتى يسلم الخلق. وقال الفراء: حـتى يؤمنوا ويذهب الكفر. وقال الكلبي: حتى يظهر الإسـلام على الدين كله[٦]. وقـال الحسـن: حتى لا يعـبـدوا إلا الله[٧]. وقيل: مـعنى الأوزار السلاح، فـالمعنى شدوا الوثاق حـتى تأمنوا وتضعـوا السلاح. وقـيل: معناه حتـى تضع الحرب، أي الأعداء المحاربون أوزارهم، وهو سلاحهم بالهزيمة أو الموادعة. ويقال للكراع أوزار. قال الأعشى:

وأعددت للحرب أوزارها رماحاً طوالاً وخيلاً ذكورا

ومن نَسْج داود يحدي بها على أثر الحيّ عِيراً فعِيرا

وقيل: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أي أثقالها. والوزر الثـقل، ومنه وزير الملك لأنه يتحمل عنه الأثقال. وأثقالها السلاح لثقل حملها. قـال ابن العربي: قال الحسن وعطاء: في الآية تقديم وتأخير، المعنى فضرب الرقاب حتى تضع الحرب أوزارها فإذا أثخـنتموهم فشدوا الوثاق، وليس للإمام أن يقتل الأسير. وقد روي عن الحجـاج أنه دفع أسيرا إلى عبدالله بن عمر ليقتـله فأبى وقال: ليس بهذا أمرنا الله، وقرأ ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾. قلنا: قد قاله رسول الله ﷺ وفعله، وليس في تفسير الله للمن والفـداء منع من غيـره، فقد بين الـله في الزنا حكم الجلد، وبين النبي ﷺ حكم الرجم، ولعل ابن عمر كره ذلك من يد الحجاج فاعتذر بما قال، وربك أعلم.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ في موضع رفع على مـا تقدم، أي الأمر ذلك الذي ذكرت وبينت. وقيل: هو منصوب على معنى افعلوا ذلك: ويجوز أن يكون مبتدأ، المعنى ذلك حكم الكفار. وهـي كلمة يستـعملها الفـصيح عند الخروج من كـلام إلى كلام، وهو كمـا قال تعالى: ﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ [ص: ٥٥]. أي هذا حق وأنا أعـرفكم أن للظالمين كذا. ومـعنى ﴿لَانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ أي أهلكهم بغيـر قتال. وقال ابن عـباس: لأهلكهم بجند من الملائكة. ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ

---

(١) عند الآية (٦٧).

(٢، ٣) صحيح إلى مجاهد: الطبري (٢٦/ ٤٤) في تفسيره، وزاد السيوطي (٦/ ٢١) في الدر عزوه إلى الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٤) رواه البغوي (٧/ ٢٨٠) في تفسيره غير مسند.

(٥) عزاه السيوطي (٦/ ٢١) في الدر إلي ابن المنذر.

﴿بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ أي أمركم بالحرب ليبلو ويختبر بعضكم ببعض فيعلم المجاهدين والصابرين، كما في السورة نفسها. ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يريد قتلى أحد من المؤمنين ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ قراءة العامة «قاتلوا»(١) وهي اختيار أبي عبيد. وقرأ أبو عمرو وحفص ﴿قُتِلُوا﴾ بضم القاف وكسر التاء، وكذلك قرأ الحسن إلا أنه شدد التاء على التكثير. وقرأ الجحدري وعيسى بن عمر وأبو حيوة «قَتَلوا» بفتح القاف والتاء من غير ألف، يعني الذين قتلوا المشركين. قال قتادة: ذكر لنا أن هذه الآية نزلت يوم أحد ورسول الله ﷺ في الشعب، وقد فشت فيهم الجراحات والقتل، وقد نادى المشركون: اعل هبل. ونادى المسلمون: الله أعلى وأجل. وقال المشركون: يوم بيوم بدر والحرب سجال. فقال النبي ﷺ: «قولوا لا سواء. قتلانا أحياء عند ربهم يرزقون وقتلاكم في النار يعذبون». فقال المشركون: إن لنا العزى ولا عزى لكم (٢). فقال المسلمون: الله مولانا ولا مولى لكم. وقد تقدم ذكر ذلك في آل عمران.

﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥﴾

قال القشيري: قراءة أبي عمرو ﴿قُتِلُوا﴾ بعيدة، لقوله تعالى: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ والمقتول لا يوصف بهذا. قال غيره: يكون المعنى سيهديهم إلى الجنة، أو سيهدي من بقي منهم، أي يحقق لهم الهداية. وقال ابن زياد: سيهديهم إلى محاجة منكر ونكير في القبر (٣). قال أبو المعالي: وقد ترد الهداية والمراد بها إرشاد المؤمنين إلى مسالك الجنان والطرق المفضية إليها، ومن ذلك قوله تعالى في صفة المجاهدين ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ. سَيَهْدِيهِمْ﴾ ومنه قوله تعالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣] معناه فاسلكوا بهم إليها.

﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾

أي إذا دخلوها يقال لهم تفرقوا إلى منازلكم؛ فهم أعرف بمنازلهم من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم. قال معناه مجاهد وأكثر المفسرين (٤). وفي البخاري ما يدل على صحة هذا القول عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله في الدنيا» (٥). وقيل: ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أي بينها لهم حتى عرفوها من غير استدلال. قال الحسن: وصف الله تعالى لهم الجنة في الدنيا، فلما دخلوها عرفوها بصفتها. وقيل: فيه حذف؛ أي عرف طرقها ومساكنها وبيوتها لهم؛ فحذف المضاف. وقيل: هذا التعريف بدليل، وهو الملك الموكل بعمل العبد يمشي بين يديه ويتبعه العبد حتى يأتي العبد

---

(١) قراءة متواترة : تقريب النشر (ص١٥٣) .

(٢) مرسل : وعلى صحة إسناده إلى قتادة ، كما عند الطبري (٢٦/ ٤٥) في تفسيره إلا أن السند منقطع ، وقد سبق روايته موصولاً عند البخاري (٤٠٤٣) في المغازي، عن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه .

(٣) زاد المسير (٥/ ٣٧٣) لابن الجوزي غير مسند .

(٤) صحيح إلى ابن سعيد ، ومجاهد ، وقتادة : الطبري (٢٦/ ٤٦) في تفسيره.

(٥) صحيح : البخاري (٢٤٤٠) في المظالم ، و (٦٥٣٥) في الرقاق .

منزله، ويعرفه الملك جميع ما جعل له في الجنة. وحديث أبي سعيد الخدري يرده. وقال ابن عباس: ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أي طيبها لهم بأنواع الملاذ [١]؛ مأخوذ من العَرْف، وهو الرائحة الطيبة. وطعام معرف أي مطيب؛ تقول العرب: عرفت القدر إذا طيبتها بالملح والأبزار. وقال الشاعر يخاطب رجلا ويمدحه:

عَرُفْتَ كإتْبِ عرّفته اللَّطائم [٢]

يقول: كما عرف الإتب، وهو البقير والبقيرة، وهو قميص لا كمين له تلبسه النساء. وقيل: هو من وضع الطعام بعضه على بعض من كثرته، يقال حرير معرف، أي بعضه على بعض، وهو من العرف المتتابع كعرف الفرس. وقيل: ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أي وفقهم للطاعة حتى استوجبوا الجنة. وقيل: عرف أهل السماء أنها لهم إظهارا لكرامتهم فيها. وقيل: عرف المطيعين أنها لهم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧ ﴾

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ أي إن تنصروا دين الله ينصركم على الكفار. نظيره: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠] وقد تقدم. وقال قطرب: إن تنصروا نبي الله ينصركم الله، والمعنى واحد. ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ أي عند القتال. وقيل: على الإسلام. وقيل على الصراط. وقيل: المراد تثبيت القلوب بالأمن، فيكون تثبيت الأقدام عبارة عن النصر والمعونة في موطن الحرب. وقد مضى في «الأنفال» هذا المعنى. وقال هناك: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢] فأثبت هناك واسطة ونفاها هنا، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١] ثم نفاها بقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ [الروم: ٤٠]، ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك: ٢] ومثله كثير، فلا فاعل إلا الله وحده.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٨ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ يحتمل الرفع على الابتداء، والنصب بما يفسره ﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ كأنه قال: أتعس الذين كفروا. و﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ نصب على المصدر بسبيل الدعاء، قاله الفراء، مثل سقيا له ورعيا. وهو نقيض لعا له [٣]. قال الأعشى:

فالتَّعْس أولَى لها من أن أقول لَعَا

وفيه عشرة أقوال [٤]: الأول: بعدا لهم، قاله ابن عباس وابن جريج. الثاني: حزنا لهم، قاله السدي. الثالث: شقاء لهم، قاله ابن زيد. الرابع: شتما لهم من الله، قاله الحسن. الخامس: هلاكا لهم، قاله ثعلب. السادس: خيبة لهم، قاله الضحاك وابن زيد. السابع: قبحا لهم، حكاه النقاش. الثامن: رغما لهم، قاله الضحاك أيضا. التاسع: شرا لهم، قاله ثعلب أيضا. العاشر: شقوة لهم،

(١) ذكره البغوي (١٦/ ٢٣١) في تفسيره عن عطاء، عن ابن عباس.
(٢) اللطائم: جمع لطيمة وهي قطعة المسك. اللسان «لطم».
(٣) كلمة يدعى بها للعاثر، ومعناها الارتفاع. اللسان «لعا».
(٤) قول ابن زيد صحيح إليه كما عند الطبري (٢٦/ ٤٧) في تفسيره وبقية الأقوال غير مسندة كما عند البغوي (٧/ ٢٨١) في تفسيره، وعند ابن الجوزي (٥/ ٣٧٤) في زاد المسير.

قاله أبو العالية. وقيل: إن التعس الانحطاط والعثار. قال ابن السكيت: التعس أن يخر على وجهه. والنكس أن يخر على رأسه. قال: والتعس أيضا الهلاك. قال الجوهري: وأصله الكب، وهو ضد الانتعاش. وقد تَعَسَ بفتح العين يَتْعَسُ تَعْسا، وأتعسه الله. قال مجمع بن هلال:

تقول وقد أفردتُها من خَليلِها تَعِسْتَ كما أتْعَسْتَني يا مُجَمِّعُ

يقال: تعسا لفلان، أي ألزمه الله هلاكا. قال القشيري: وجوز قوم تعس بكسر العين.

قلت: ومنه حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة إن أعطي رضي وإن لم يعط لم يرض» (١) خرجه البخاري في بعض طرق هذا الحديث «تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش» (٢) خرجه ابن ماجة.

قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي أبطلها لأنها كانت في طاعة الشيطان. ودخلت الفاء في قوله ﴿فَتَعْسًا﴾ لأجل الإبهام الذي في ﴿الَّذِينَ﴾، وجاء ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ على الخبر حملا على لفظ الذين، لأنه خبر في اللفظ، فدخول الفاء حملا على المعنى، ﴿وَأَضَلَّ﴾ حملا على اللفظ.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۝٩﴾

أي ذلك الإضلال والإتعاس، لأنهم ﴿كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ من الكتب والشرائع. ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي ما لهم من صور الخيرات، كعمارة المسجد وقرى الضيف وأصناف القرب، ولا يقبل الله العمل إلا من مؤمن. وقيل: أحبط أعمالهم أي عبادة الصنم.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ۝١٠﴾

بين أحوال المؤمن والكافر تنبيها على وجوب الإيمان، ثم وصل هذا بالنظر، أي ألم يسر هؤلاء في أرض عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ليعتبروا بهم ﴿فَيَنظُرُوا﴾ بقلوبهم ﴿كَيْفَ كَانَ﴾ آخر أمر الكافرين قبلهم. ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي أهلكهم واستأصلهم. يقال: دمره تدميرا، ودمر عليه بمعنى. ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ ثم تواعد مشركي مكة فقال: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ أي أمثال هذه الفعلة، يعني التدمير. وقال الزجاج والطبري: الهاء تعود على العاقبة، أي وللكافرين من قريش أمثال عاقبة تكذيب الأمم السالفة إن لم يؤمنوا.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ۝١١﴾

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي وليهم وناصرهم. وفي حرف ابن مسعود «ذلك بأن الله ولي الذين آمنوا». فالمولى: الناصر ها هنا، قاله ابن عباس وغيره. قال:

فَغدَت كِلاَ الفَرْجَيْن تحسِب أنه مَوْلَى المخافة خَلْفُها وأمامها

(١) صحيح: البخاري (٨٨٦) في الجهاد.

ومعنى: إذا شيك فلا انتقش: أى إذا دخلت الشوكة في جسده لا يخرجها عن موضعها.

(٢) صحيح: ابن ماجه (٤١٣٦) في الزهد، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ وصححه الألباني هناك.

قال قتادة: نزلت يوم أحد والنبي ﷺ في الشِّعب، إذ صاح المشركون: يوم بيوم، لنا العزى ولا عزى لكم، قال النبي ﷺ: «قولوا الله مولانا ولا مولى لكم» وقد تقدم. ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي لا ينصرهم أحد من الله[1].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ تقدم في غير موضع ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ﴾ في الدنيا كأنهم أنعام، ليس لهم همة إلا بطونهم وفروجهم، ساهون عما في غدهم. وقيل: المؤمن في الدنيا يتزود، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع. ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي مقام ومنزل.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ تقدم الكلام في ﴿كَأَيِّن﴾ في «آل عمران» وهي هنا بمعنى كم، أي وكم من قرية. وأنشد الأخفش قول لبيد:

وكائن رأينا من مُلُوك وسُوقة ... ومفتاحِ قَيْدٍ للأسير المكبل

فيكون معناه: وكم من أهل قرية. ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ أي أخرجك أهلها. ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ قال قتادة وابن عباس: لما خرج النبي ﷺ من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال: «اللهم أنت أحب البلاد إلى الله وأنت أحب البلاد إلي ولولا المشركون أهلك أخرجوني لما خرجت منك»[2]. فنزلت الآية، ذكره الثعلبي، وهو حديث صحيح.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ الألف ألف تقرير. ومعنى ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ أي على ثبات ويقين، قاله ابن عباس. أبو العالية: وهو محمد ﷺ[3]. والبينة: الوحي. ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ أي عبادة الأصنام، وهو أبو جهل والكفار. ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي ما اشتهوا. وهذا التزيين من جهة الله خلقا. ويجوز أن يكون من الشيطان دعاء ووسوسة. ويجوز أن يكون من الكفار، أي زين لنفسه سوء عمله وأصر على الكفر. وقال: ﴿سُوءُ﴾ على لفظ ﴿مَن﴾ ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ على معناه.

---

(١) مرسل: وقد سبق.

(٢) صحيح: بهذا الإسناد وغيره، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما، وقد رواه الترمذي (٣٩٢٦) في المناقب، وابن ماجه (٣١٠٨) في المناسك، ورواه أبو يعلى، وابن أبي حاتم كما عند ابن كثير (٧/ ٢٤٠) في تفسيره، ورواه الطبري (٢٦/ ٤٩) في تفسيره من طريق عكرمة، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما، وانظر صحيح الجامع (٥٥٣٦).

(٣) ابن الجوزي (٥/ ٣٧٤) في زاد المسير غير مسند.

obeikandi.com

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَـٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ لما قال عز وجل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ ﴾[الحج: ١٤] وصف تلك الجنات، أي صفة الجنة المعدة للمتقين. وقد مضى الكلام في هذا في «الرعد». وقرأ علي بن أبي طالب «مثال الجنة التي وعد المتقون». ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ﴾ أي غير متغير الرائحة. والآسن من الماء مثل الآجن. وقد أسَنَ الماءُ يأسُن ويأسِن أسْنا وأُسُونا إذا تغيرت رائحته. وكذلك أجَنَ الماءُ يأجُنُ ويأجِنُ أجْنا وأُجُونا. ويقال بالكسر فيهما: أجن وأسن يأسن ويأجن أسنا وأجنا، قاله اليزيدي. وأسن الرجل أيضا يأسن الكسر لا غير إذا دخل البئر فأصابته ريح منتنة من ريح البئر أو غير ذلك فغشي عليه أو دار رأسه، قال زهير:

قد أترك القرن مُصْفَرًّا أنامله ... يَمِيد في الرُّمح مَيد المائح الأسِن

ويروى «الوسن». وتأسن الماء تغير. أبو زيد: تأسن علي تأسنا اعتل وأبطأ. أبو عمرو: تأسن الرجل أباه أخذ أخلاقه. وقال اللحياني: إذا نزع إليه في الشبه، وقراءة العامة ﴿ آسِنٍ ﴾ بالمد. وقرأ ابن كثير وحميد «أسن» بالقصر[1]، وهما لغتان، مثل حاذر وحذر. وقال الأخفش: أسن للحال، وآسن مثل فاعل يراد به الاستقبال.

قوله تعالى: ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ﴾ أي لم يحمض بطول المقام كما تتغير ألبان الدنيا إلى الحموضة. ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴾ أي لم تدنسها الأرجل ولم ترنقها[2] الأيدي كخمر الدنيا، فهي لذيذة الطعم طيبة الشرب لا يتكرهها الشاربون. يقال: شراب لَذٌّ ولذيذٌ بمعنى. واستلذه عده لذيذا. ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾ العسل ما يسيل من لعاب النحل. ﴿ مُصَفًّى ﴾ أي من الشمع والقذى، خلقه الله كذلك لم يطبخ على نار ولا دنسه النحل. وفي الترمذي عن حكيم بن معاوية عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة بحر الماء وبحر العسل وبحر اللبن وبحر الخمر ثم تشقق الأنهار بعد»[3]. قال: حديث حسن صحيح. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سيحان وجيحان والنيل والفرات كُلٌّ من أنهار الجنة»[4]. وقال كعب: نهر دجلة نهر ماء أهل الجنة، ونهر الفرات نهر لبنهم، ونهر مصر نهر خمرهم، ونهر سيحان نهر عسلهم. وهذه الأنهار الأربعة تخرج من نهر الكوثر[5]. والعسل: يذكر ويؤنث. وقال ابن عباس ﴿ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾ أي لم يخرج من بطون النحل. ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ ﴿ مِن ﴾ زائدة للتأكيد. ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ أي لذنوبهم. ﴿ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ ﴾ قال الفراء: المعنى أفمن يخلد في هذا النعيم كمن يخلد

(١) قراءة متواترة: تقريب النشر (ص١٧٤).
(٢) ترنقها: تكدرها. اللسان «رنق».
(٣) حسن صحيح: الترمذي (٢٥٧١) في صفة الجنة وصححه الألباني هناك.
(٤) صحيح: مسلم (٢٨٣٩) في الجنة وصفة نعيمها وأهلها.
(٥) كذا عند البغوي غير مسند (٧/ ٢٨٣) في تفسيره.

في النار. وقال الزجاج: أي أفمن كان على بينة من ربه وأعطى هذه الأشياء كمن زين له سوء عمله وهو خالد في النار. فقوله: ﴿كَمَنْ﴾ بدل من قوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ [فاطر: ٨]. وقال ابن كيسان: مثل هذه الجنة التي فيها الثمار والأنهار كمثل النار التي فيها الحميم والزقوم. ومثل أهل الجنة في النعيم المقيم كمثل أهل النار في العذاب المقيم. ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ أي حارا شديد الغليان، إذا أدنى منهم شوى وجوههم، ووقعت فروة رؤوسهم، فإذا شربوه قطع أمعاءهم وأخرجها من دبورهم. والأمعاء: جمع معى، والتثنية معيان، وهو جميع ما في البطن من الحوايا.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ أي من هؤلاء الذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام، وزين لهم سوء عملهم قوم يستمعون إليك وهم المنافقون: عبدالله بن أبي ابن سلول ورفاعة بن التابوت وزيد بن الصليت والحارث بن عمرو ومالك بن دخشم، كانوا يحضرون الخطبة يوم الجمعة فإذا سمعوا ذكر المنافقين فيها أعرضوا عنه، فإذا خرجوا سألوا عنه، قاله الكلبي ومقاتل. وقيل: كانوا يحضرون عند رسول الله ﷺ مع المؤمنين، فيستمعون منه ما يقول، فيعيه المؤمن ولا يعيه الكافر(١). ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ﴾ أي إذا فارقوا مجلسك ﴿قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ قال عكرمة: هو عبدالله بن العباس (٢). قال ابن عباس: كنت ممن يُسأل، أي كنت من الذين أوتوا العلم (٣). وفي رواية عن ابن عباس: أنه يريد عبدالله بن مسعود (٤). وكذا قال عبدالله بن بريدة: هو عبدالله بن مسعود(٥). وقال القاسم بن عبدالرحمن: هو أبو الدرداء (٦). وقال ابن زيد: إنهم الصحابة (٧). ﴿مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ أي الآن، على جهة الاستهزاء. أي أنا لم ألتفت إلى قوله. و﴿آنِفًا﴾ يراد به الساعة التي هي أقرب الأوقات إليك، من قولك: استأنفت الشيء إذا ابتدأت به. ومنه أمر أنف، وروضة أنف، أي لم يرعها أحد. وكأس أنف: إذا لم يشرب منها شيء، كأنه استؤنف شربها مثل روضة أنف.

قال الشاعر:

ويَحْرُمُ سِرُّ جَارتهم عَليهم ويأكلُ جَارهُم أنفَ القصاع

---

(١) مرسل ضعيف: وقد سبق.

(٢) عزاه السيوطي (٦/ ٢٦) في الدر لابن أبي حاتم.

(٣) في إسناده ضعيف وهو محتمل للتحسين: في إسناد الطبري (٢٦/ ٥٢) عثمان أبو اليقظ، وفيه ضعف، وصححه الحاكم بنفس الإسناد (٢/ ٤٩٦) في المستدرك.

(٤) ضعيف جدًا: ابن عساكر من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ كما في الدر المنثور (٦/ ٢٧).

(٥) ضعيف: ابن أبي شيبة (٦/ ٣٨٥) في المصنف، وفيه صالح بن حيان، عن ابن بريدة، قال البخاري (٥/ ٢٧٥) في التاريخ الكبير: «فيه نظر».

(٦) كذا في فتح القدير (٦/ ٤٧٧) للشوكاني غير مسند.

(٧) مرسل: الطبري (٢٦/ ٥٢) في تفسيره.

وقال آخر:

إن الشِّواء والنَّشيل والرُّغُفْ والْقَيْنَةَ الحسناءَ والكأسَ الأُنُفْ
للطاعنين الخيل والخيل قُطُف

وقال امرؤ القيس:

قد غَدَا يحملني في أنفه

أي في أوله. وأنف كل شيء أوله. وقال قتادة في هؤلاء المنافقين: الناس رجلان: رجل عقل عن الله فانتفع بما سمع، ورجل لم يعقل ولم ينتفع بما سمع. وكان يقال: الناس ثلاثة: فسامع عامل، وسامع عاقل، وسامع غافل تارك [١].

قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فلم يؤمنوا. ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ في الكفر. ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا﴾ أي للإيمان زادهم الله هدى. وقيل: زادهم النبي ﷺ هدى. وقيل: ما يستمعونه من القرآن هدى، أي يتضاعف يقينهم. وقال الفراء: زادهم إعراض المنافقين واستهزاؤهم هدى. وقيل: زادهم نزول الناسخ هدى. وفي الهدى الذي زادهم أربعة أقاويل [٢]: أحدها: زادهم علما، قاله الربيع بن أنس. الثاني: أنهم علموا ما سمعوا وعملوا بما علموا، قاله الضحاك. الثالث: زادهم بصيرة في دينهم وتصديقا لنبيهم، قاله الكلبي. الرابع: شرح صدورهم بما هم عليه من الإيمان.

قوله تعالى: ﴿وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ أي ألهمهم إياها. وقيل: فيه خمسة أوجه:

أحدها: آتاهم الخشية، قاله الربيع. الثاني: ثواب تقواهم في الآخرة، قاله السدي. الثالث: وفقهم للعمل الذي فرض عليهم، قاله مقاتل. الرابع: بين لهم ما يتقون، قاله ابن زياد والسدي أيضا. الخامس: أنه ترك المنسوخ والعمل بالناسخ، قاله عطية. الماوردي: ويحتمل سادسا: أنه ترك الرخص والأخذ بالعزائم. وقرئ «وأعطاهم» بدل ﴿وَآتَاهُمْ﴾. وقال عكرمة: هذه نزلت فيمن آمن من أهل الكتاب [٣].

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي فجأة. وهذا وعيد للكفار ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي أماراتها وعلاماتها. وكانوا قد قرؤوا في كتبهم أن محمدا ﷺ آخر الأنبياء، فبعثه من أشراطها وأدلتها، قاله الضحاك والحسن [٤]. وفي الصحيح عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين» وضم السبابة والوسطى، لفظ مسلم، وخرجه البخاري والترمذي وابن ماجه. ويروى «بعثت والساعة كفرسي رهان» [٥]. وقيل: أشراط الساعة أسبابها التي هي دون معظمها. ومنه يقال للدون من الناس: الشَّرَطُ. وقيل: يعني علامات الساعة انشقاق القمر والدخان،

(١) صحيح إليه: الطبري (٢٦/ ٥٢) في تفسيره.
(٢) انظر: الشوكاني (٦/ ٤٧٧، ٤٧٨) في فتح القدير غير مسند، وابن الجوزي في زاد المسير (٥/ ٣٧٦)، وانظر النكت والعيون (٤/ ١٢٩) للماوردي.
(٣) زاد المسير (٥/ ٣٧٦) وابن الجوزي غير مسند.
(٤) فتح القدير (٦/ ٤٧٨) للشوكاني غير مسند.
(٥) متفق عليه: وقد سبق.

معظمها. ومنه يقال للدون من الناس: الشَّرَطُ. وقيل: يعني علامات الساعة انشقاق القمر والدخان، قاله الحسن أيضا (١). وعن الكلبي: كثرة المال والتجارة وشهادة الزور، وقطع الأرحام، وقلة الكرام وكثرة اللئام (٢). وقد أتينا على هذا الباب في كتاب «التذكرة» مستوفى والحمد لله. وواحد الأشراط شرط، وأصله الأعلام. ومنه قيل: الشـرط، لأنهم جعلوا لأنفسهم علامة يعـرفون بها. ومنه الشرط في البيع وغيره. قال أبو الأسود:

فإن كنتِ قد أزْمَعْتِ بالصُّرْمِ بيننا ... فقد جَعلتِ أشراطَ أوّله تبدو

ويقال: أشرط فلان نفسه في عمل كذا أي أعلمـها وجعلها له. قال أوس بن حجر يصف رجلا تدلى بحبل من رأس جبل إلى نبعة (٣) يقطعها ليتخذ منها قوسا:

فأشْرَط نفسه فيها وهو مُعْصِمٌ ... وألقى بأسبابٍ له وتَوَكّلا

﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ ﴿أن﴾ بدل اشتمال من ﴿السَّاعَةَ﴾، نحو قوله: ﴿أَن تَطَئُوهُمْ﴾ [الفتح: ٢٥] من قوله: ﴿رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ﴾ [الفتح: ٢٥]. وقرئ «بَغَتَّةً» بوزن جَـربَّة، وهي غريبة لم ترد في المصادر أختها، وهي مروية عن أبي عمـرو. الزمخشري: وما أخوفني أن تكون غلطة من الراوي عن أبي عمرو، وأن يكون الصواب ﴿بَغَتَةً﴾ بفتح الغين من غير تشديد، كقراءة الحسن. وروى أبو جعفر الرؤاسي وغيره من أهل مكة ﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾. قال المهدوي: ومن قرأ «إن تأتهـم بغتة» كان الوقف على ﴿السَّاعَةَ﴾ ثم استأنف الشـرط. وما يحتمله الكلام من الشك مـردود إلى الخلق، كأنه قال: إن شكوا في مجيئها ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ ﴿ذِكْرَاهُمْ﴾ ابتداء و﴿أَنَّىٰ لَهُمْ﴾ الخبر. والضمير المرفوع في ﴿جَاءَتْهُمْ﴾ للساعة، التقدير: فمن أين لهم التذكر إذا جاءتهم الساعة، قال معناه قتادة (٤) وغيره. وقيل: فكيف لهم بـالنجاة إذا جاءتهم الذكـرى عند مجيء الساعـة، قاله ابن زيد (٥). وفي الذكرى وجهـان: أحدهمـا: تذكيرهم بما عـملوه من خيـر أو شر. الثانـي: هو دعاؤهم بأسمـائهم تبشـيرا وتخويفا، روى أبان عن أنس عن النبي ﷺ قال: «أحسنوا أسماءكم فإنكم تـدعون بها يوم القيامة يا فلان قم إلى نورك يا فلان قم لا نور لك» (٦) ذكره الماوردي.

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾﴾

(١، ٢) انظر: فتح القدير (٦/ ٤٧٨) للشوكاني.

(٣) النبعة: شجرة من أشجار الجبال يتخذ منها القسي. اللسان «نبع».

(٤، ٥) صحيحان: الطبري (٢٦/ ٥٤).

(٦) ضعيف: وفي هذا الإسناد أبان وهو ابن أبي عياش، وهو ضعيف، وانظر الماوردي (٥/ ١٩٩، ٢٠٠). وقـد رواه أبو داود (٤٩٤٨) في الأدب، عن أبي الدرداء بنحـوه بسند ضـعيف، وانظر الضـعيـفـة (٥٤٦٠) للألباني - رحمه الله.

قوله تعالى ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾[١] قال الماوردي: وفيه - وإن كان الرسول عالما بالله - ثلاثة أوجه: يعني اعلم أن الله أعلمك أن لا إله إلا الله. الثاني: ما علمته استدلالا فاعلمه خبرا يقينا. الثالث: يعني فاذكر أن لا إله إلا الله، فعبر عن الذكر بالعلم لحدوثه عنه. وعن سفيان بن عيينة أنه سئل عن فضل العلم فقال: ألم تسمع قوله حين بدأ به ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ فأمر بالعمل بعد العلم وقال ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٢٠ - ٢١] وقال ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]. ثم قال بعد ﴿فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]. وقال تعالى ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ [الأنفال: ٤١]. ثم أمر بالعمل بعد.

قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: يعني استغفر الله أن يقع منك ذنب. الثاني: استغفر الله ليعصمك من الذنوب. وقيل: لما ذكر له حال الكافرين والمؤمنين أمره بالثبات على الإيمان، أي اثبت على ما أنت عليه من التوحيد والإخلاص والحذر عما تحتاج معه إلى استغفار. وقيل: الخطاب له والمراد به الأمة، وعلى هذا القول توجب الآية استغفار الإنسان لجميع المسلمين. وقيل: كان عليه السلام يضيق صدره من كفر الكفار والمنافقين، فنزلت الآية. أي فاعلم أنه لا كاشف يكشف ما بك إلا الله، فلا تعلق قلبك بأحد سواه. وقيل: أمر بالاستغفار لتقتدي به الأمة. ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي ولذنوبهم. وهذا أمر بالشفاعة. و«روى مسلم عن عاصم الأحول» عن عبدالله بن سرجس المخزومي قال: أتيت النبي ﷺ وأكلت من طعامه فقلت: يا رسول الله، غفر الله لك فقال له صاحبي: هل استغفر لك النبي ﷺ ؟ قال: نعم، ولك. ثم تلا هذه الآية: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ ثم تحولت فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه، جمعا عليه خيلان كأنه الثآليل[٢].

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: يعلم أعمالكم في تصرفكم وإقامتكم. الثاني: ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ في أعمالكم نهارا ﴿وَمَثْوَاكُمْ﴾ في ليلكم نياما. وقيل: ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ في الدنيا. ﴿وَمَثْوَاكُمْ﴾ في الدنيا والآخرة، قال ابن عباس والضحاك. وقال عكرمة: ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ في أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات. ﴿وَمَثْوَاكُمْ﴾ مقامكم في الأرض. وقال ابن كيسان: ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ من ظهر إلى بطن الدنيا. ﴿وَمَثْوَاكُمْ﴾ في القبور.

قلت: والعموم يأتي على هذا كله، فلا يخفى عليه سبحانه شيء من حركات بني آدم وسكناتهم، وكذا جميع خلقه. فهو عالم بجميع ذلك قبل كونه جملة وتفصيلا أولى وأخرى. سبحانه! لا إله إلا هو.

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ معلقًا على هذه الآية: «فجعل قوام الدين التوحيد والاستغفار» التحفة العراقية (ص١١٦) بتحقيقي.

(٢) صحيح: مسلم (٢٣٤٦) في الفضائل.
جمعًا: مثل جمع الكف، وهو جمع الأصابع وضمها. النهاية (١/ ٢٩٦) لابن الأثير.
خيلان: جمع خال وهو الشامة في الجسد ـ اللسان «خال».
التآليل: جمع ثؤلول وهو الحبة التى تظهر في الجلد كالحمصة فما دونها اللسان. المعجم الوجيز (ص٨١).

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي المؤمنون المخلصون. ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ اشتياقا للوحي وحرصا على الجهاد وثوابه. ومعنى ﴿لَوْلَا﴾ هلا ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ﴾ لا نسخ فيها. قال قتادة: كل سورة ذكر فيها الجهاد فهي محكمة، وهي أشد القرآن على المنافقين [١]. وفي قراءة عبدالله «فإذا أنزلت سورة محدثة» أي محدثة النزول. ﴿وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ أي فرض فيها الجهاد. وقرئ «فإذا أنزلت سورة وذكر فيها القتال» على البناء للفاعل ونصب القتال. ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي شك ونفاق. ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ أي نظر مغموصين مغتاظين بتحديد وتحديق، كمن يشخص بصره عند الموت، وذلك لجبنهم عن القتال جزعا وهلعا، ولميلهم في السر إلى الكفار.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ قال الجوهري: وقولهم: أولى لك، تهديد ووعيد. قال الشاعر:

فأولَى ثم أولَى ثم أولَى وهل للدَّرِّ يُحلَبُ من مَرَدِّ

قال الأصمعي: معناه قاربه ما يهلكه، أي نزل به. وأنشد:

فعادَى بين هادِيَتَيْن منها وأولَى أن يزيدَ على الثَّلاث

أي قارب أن يزيد. قال ثعلب: ولم يقل أحد في ﴿أَوْلَىٰ﴾ أحسن مما قال الأصمعي. وقال المبرد: يقال لمن هم بالعطب ثم أفلت: أولى لك، أي قاربت العطب. كما روي أن أعرابيا كان يوالي رمي الصيد فيفلت منه ليقول: أولى لك. ثم رمى صيدا فقاربه ثم أفلت منه فقال:

فلو كان أولَى يُطعِم القومَ صِدتُهم ولكنّ أولَى يَترُكُ القومَ جُوَّعَا

وقيل: هو كقول الرجل لصاحبه: يا محروم، أي شيء فاتك وقال الجرجاني: هو مأخوذ من الويل، فهو أفعل، ولكن فيه قلب، وهو أن عين الفعل وقع موقع اللام. وقد تم الكلام على قوله ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾. قال قتادة: كأنه قال العقاب أولى لهم [٢]. وقيل: أي وليهم المكروه. ثم قال: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أي طاعة وقول معروف أمثل وأحسن، وهو مذهب سيبويه والخليل. وقيل: إن التقدير أمرنا طاعة وقول معروف، فحذف المبتدأ فيوقف على ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾. وكذا من قدر يقولون منا طاعة. وقيل: إن الآية الثانية متصلة بالأولى. واللام في قوله ﴿لَهُمْ﴾ بمعنى الباء، أي الطاعة أولى وأليق بهم، وأحق لهم من ترك امتثال أمر الله. وهي قراءة أبي «يقولون طاعة». وقيل إن: ﴿طَاعَةٌ﴾ نعت لـ ﴿سُورَةٌ﴾، على تقدير: فإذا أنزلت سورة ذات طاعة، فلا يوقف على هذا على ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾. قال ابن عباس: إن قولهم: ﴿طَاعَةٌ﴾ إخبار من الله عز وجل عن المنافقين. والمعنى لهم طاعة وقول معروف، قيل: وجوب الفرائض عليهم، فإذا أنزلت الفرائض شق عليهم نزولها. فيوقف على هذا

(١) صحيح: الطبري (٢٦/ ٥٥) في تفسيره.
(٢) صحيح إليه: انظر السابق (٢٦/ ٥٥).

على ﴿فَأَوْلَىٰ﴾. ﴿فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ﴾أي جد القتـال، أو وجب فرض القتال، كـرهوه. فكرهوه جواب ﴿إِذَا﴾ وهو مـحذوف. وقـيل: المعنى فـإذا عزم أصـحاب الأمـر. ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾أي في الإيمان والجهاد. ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ من المعصية والمخالفة.

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾ اختلف في معنى ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ فقيل: هو من الولاية. قال أبو العالية: المعنى فهل عسـيتم إن توليتم الحكم فجُعلتم حكاما أن تفسدوا في الأرض بأخذ الرشا [١]. وقال الكلبي: أي فهل عسيتم إن توليتم أمر الأمة أن تفسدوا في الأرض بالظلم[٢]. وقال ابن جريج: المعنى فهل عسيتم إن توليتم عن الطاعة أن تفسدوا في الأرض بالمعاصي وقطع الأرحام [٣]. وقال كعب : المعنى فـهل عسيتم إن توليتم الأمر أن يقتل بـعضكم بعضا [٤]. وقيل: من الإعراض عن الشيء. قال قتادة: أي فهل عسـيتم إن توليتم عن كتاب الله أن تفسدوا في الأرض بسفك الدماء الحرام، وتقـطعوا أرحامكم. وقيل ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ أي فلعلكم إن أعرضتم عن القرآن وفارقـتم أحكامه أن تفسدوا في الأرض فتـعودوا إلى جاهليتكم. وقرئ بفـتح السين وكسرها. وقد مضى في «البقرة» القول فـيه مستوفى. وقال بكر المزني [٥]: إنها نزلت في الحرورية والخوارج، وفيه بُعْدٌ. والأظهر أنه إنما عني بها المنافقون. وقـال ابن حيان: قريش. ونحوه قال المسيب بن شريك والفراء، قـالا: نزلت في بني أمية وبني هـاشم، ودليل هذا التأويل ما روى عـبدالله بن مغـفل قال سمعت النبي ﷺ يقول: «فهل عسيـتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض » ثم قال : « هم هذا الحي من قريش أخذ الله عليهم إن ولوا الناس ألا يفسدوا في الأرض ولا يقطعوا أرحامهم» [٦]. وقرأ علي ابن أبي طالب « تُوُلِّيتم أن تفسدوا في الأرض» بضم التاء والواو وكسر اللام[٧] . وهي قراءة ابن أبي إسـحاق، ورواها رويس عـن يعقـوب. يقـول: إن وليتكـم ولاة جائرة خـرجـتم معـهم في الفـتنة وحاربتموهم.

قوله تعالى: ﴿وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ بالبغي والظلم والقتل. وقرأ يعقوب وسلام وعيسى وأبو حاتم «وتَقْطَعُوا» بفتح التاء وتخـفيف القاف [٨]، من القطع، اعتبـارا بقوله تعالى﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ [البقرة: ٢٧]. وروى هذه القراءة هارون عن أبـي عمرو. وقـرأ الحسن ﴿وَتَقَطَّعُوا﴾ مفتـوحة الحروف مشددة، أعتبارا بقوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ [الأنبياء: ٩٣]. الباقون ﴿وَتُقَطِّعُوا﴾ بضم التاء مشددة الطاء، من التقطيع على التكثير، وهو اختيار أبي عبيد. وتقدم ذكر ﴿عَسَيْتُمْ﴾ [البقرة:٢٤٦]

(١ـ ٤) فتح القدير (٦/ ٤١٨١) للشوكاني غير مسندة .

(٥) عزاه السيوطي (٦/ ٤٩) في الدر لعبد بن جميد .

(٦) صححه الحاكم (٦٠٠٣) في المستدرك دون طرفه الأخير .

(٧، ٨) قراءتان متواترتان : والأولى منهما عشرية كما في تقريب النشر (ص١٧٤) .

في البقـرة. وقال الزجاج في قـراءة نافع: لو جاز هذا لجاز «عـسى» بالكسر. قال الجـوهري: ويقال عسيت أن أفعل ذلك، وعسيت بالكسر [١]. وقرئ «فهل عسيتم» بالكسر.

قلت: ويدل قوله هذا على أنهما لغتان. وقد مضى القول فيه في «البقرة» مستوفى.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي طردهم وأبعدهم من رحـمته. ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن الحق ﴿وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ أي قلوبهم عن الخير. فـأتبع الأخبار بأن من فعل ذلك حقت عليـه لعنته، وسلبه الانتفاع بسمعه وبصره حتى لا ينقاد للحق وإن سمـعه، فجعله كالبهيمة التي لا تعقل. وقال: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ ثم قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ فرجع من الخطاب إلى الغيبة على عادة العرب في ذلك.

الثانية :قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ أي يتفهمونه فيعلمون ما أعد الله للذين لم يتولوا عن الإسلام. ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ أي بل على قلوب أقفال أقفلها الله عز وجل عليهم فهم لا يعقلون. وهذا يرد على القدرية والإمـامية مذهبهم. وفي حـديث مرفوع أن النبي ﷺ قال: «إن عليهـا أقفالا كأقـفال الحـديد حتى يكون الله يفـتحـها» [٢]. وأصل القفل الـيبس والصلابة. ويقـال لما يبس من الشجر: القفل. والقفيل مثله. والقفيل أيضا نبت. والقفيل: الصوت. قال الراجز:

لما أتاك يابساً قِرْشَبّاً قمت إليه بالقفيل ضربا

كيف قَرَيْتَ شَيْخَك الأزبّا

القِرْشَبُّ بكسر القاف المسن، عن الأصمعي. وأقفله الصوم أي أيبسه، قاله القشيري والجوهري. فالأقـفال ها هنا إشارة إلى ارتجاج القلب وخلوه عـن الإيمان. أي لا يدخل قلوبهم الإيمان ولا يخرج منها الكفر، لأن الله تعالى طبع على قلوبهم وقال: ﴿عَلَىٰ قُلُوبٍ﴾ لأنه لو قال على قلوبهم لم يدخل قلب غيرهم في هذه الجملة. والمراد أم على قلوب هؤلاء وقلوب من كانوا بهذه الصفة أقفالها.

الثالثة :في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قـامت الرحم فقالت هذا مقـام العائذ بك من القطيعة قـال نعم أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك قالت بلى قال فذاك لك» ثم قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا إن شئتم ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾» [٣]. وظاهر الآية أنهـا خطاب لجميع الكفـار. وقال قـتادة وغيـره: معنى الآية فـلعلكم، أو يخاف عليكم، إن أعـرضتم عن الإيمان أن تعـودوا إلى الفسـاد في الأرض لسفك الدماء. قال قتادة: كيف رأيتم القوم حين تولوا عن كتاب الله تعالى ألم يسفكوا الدماء الحرام ويـقطعوا الأرحـام وعصـوا الرحمن؟ فـالرحم على هذا رحم دين الإسلام والإيمان، التـي قد سماها الله إخوة بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]. وعلى قول الفراء: إن الآية نزلت في بني هاشم وبني أميـة، والمراد من أضمر منهم نفـاقا، فأشار بقطع الرحم إلى مـا كان بينهم وبين النبي ﷺ من القرابة بتكذيبهم النبي ﷺ. وذلك يوجب القتال. وبالجملة فالرحم على وجهين: عامة

(١) قراءة عشرية : تقريب النشر (ص٩٧) .

(٢) ضعيف : الطبري (٢٦/ ٥٩) في تفسيره وفيه إرسال عروة بن الزبير .

(٣) متفق عليه : البخاري (٤٨٣٠) في كتاب التفسير ، ومسلم (٢٥٥٤ / ١٦) في البر والصلة والآداب .

وخاصة، فالعامة رحم الدين، ويوجب مواصلتها بملازمة الإيمان والمحبة لأهله ونصرتهم، والنصيحة وترك مضارتهم والعدل بينهم، والنصفة في معاملتهم والقيام بحقوقهم الواجبة، كتمريض المرضى وحقوق الموتى من غسلهم والصلاة عليهم ودفنهم، وغير ذلك من الحقوق المترتبة لهم. وأما الرحم الخاصة وهي رحم القرابة من طرفي الرجل أبيه وأمه، فتجب لهم الحقوق الخاصة وزيادة، كالنفقة وتفقد أحوالهم، وترك التغافل عن تعاهدهم في أوقات ضروراتهم، وتتأكد في حقهم حقوق الرحم العامة، حتى إذا تزاحمت الحقوق بدئ بالأقرب فالأقرب. وقال بعض أهل العلم: إن الرحم التي تجب صلتها هي كل رحم محرم وعليه فلا تجب في بني الأعمام وبني الأخوال. وقيل: بل هذا في كل رحم ممن ينطلق عليه ذلك من ذوي الأرحام في المواريث، محرما كان أو غير محرم. فيخرج من هذا أن رحم الأم التي لا يتوارث بها لا تجب صلتهم ولا يحرم قطعهم. وهذا ليس بصحيح، والصواب أن كل ما يشمله ويعمه الرحم تجب صلته على كل حال، قربة ودينية، على ما ذكرناه أولا والله أعلم. وقد روى أبو داود الطيالسي في «مسنده» قال: حدثنا شعبة قال أخبرني محمد بن عبدالجبار قال سمعت محمد بن كعب القرظي يحدث عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن للرحم لسانا يوم القيامة تحت العرش يقول يا رب قطعت يا رب ظلمت يا رب أسيء إلي فيجيبها ربها ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك» (١) وفي «صحيح مسلم» عن جبير ابن مطعم عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة قاطع». قال ابن أبي عمر قال سفيان: يعني قاطع رحم. رواه البخاري (٢).

الرابعة: قوله عليه السلام: «إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم . . .» «خلق» بمعنى اخترع وأصله التقدير، كما تقدم. والخلق هنا بمعنى المخلوق. ومنه قوله تعالى ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ١١] أي مخلوقه. ومعنى «فرغ منهم» كمل خلقهم. لا أنه اشتغل بهم ثم فرغ من شغله بهم، إذ ليس فعله بمباشرة ولا مناولة، ولا خلقه بآلة ولا محاولة، تعالى عن ذلك. وقوله: «قامت الرحم فقالت» يحمل على أحد وجهين: أحدهما: أن يكون الله تعالى أقام من يتكلم عن الرحم من الملائكة فيقول ذلك، وكأنه وكل بهذه العبادة من يناضل عنها ويكتب ثواب من وصلها ووزر من قطعها، كما وكل الله بسائر الأعمال كراما كاتبين، وبمشاهدة أوقات الصلوات ملائكة متعاقبين. وثانيهما: أن ذلك على جهة التقدير والتمثيل المفهم للإعياء وشدة الاعتناء. فكأنه قال: لو كانت الرحم ممن يعقل ويتكلم لقالت هذا الكلام، كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١] وقوله: «فقالت هذا مقام العائذ بك من القطيعة» مقصود هذا الكلام الإخبار بتأكد أمر صلة الرحم، وأن الله سبحانه قد نزلها بمنزلة من استجار به فأجاره، وأدخله في ذمته وخفارته. وإذا كان كذلك فجار الله غير مخذول وعهده غير منقوض. ولذلك قال مخاطبا للرحم: «أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك». وهذا كما قال عليه السلام: «ومن صلى الصبح فهو في ذمة الله تعالى فلا يطلبنكم الله من ذمته بشيء فإنه من يطلبه

(١) رواه أبو داود الطيالسي (٢٥٤٣).

(٢) صحيح: البخاري (٥٩٨٤) في الأدب، ومسلم (٢٥٥٦) في القدر.

بذمته بشيء يدركه ثم يكبه في النار على وجهه»[١].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم﴾ قال قتادة: هم كفار أهل الكتاب، كفروا بالنبي ﷺ بعد ما عرفوا نعته عندهم، قاله ابن جريج. وقال ابن عباس والضحاك والسدي: هم المنافقون، قعدوا عن القتال بعد ما علموه في القرآن. ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أي زين لهم خطاياهم، قاله الحسن. ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي مد لهم الشيطان في الأمل ووعدهم طول العمر، عن الحسن أيضا. وقال: إن الذي أملى لهم في الأمل ومد في آجالهم هو الله عز وجل، قاله الفراء والمفضل. وقال الكلبي ومقاتل: إن معنى ﴿أَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ أمهلهم، فعلى هذا يكون الله تعالى أملى لهم بالإمهال في عذابهم.

وقرأ أبو عمرو وابن إسحاق وعيسى بن عمرو أبو جعفر وشيبة «أُمْلِيَ لهم» بضم الهمزة وكسر اللام وفتح الياء[٢]، على ما لم يسم فاعله. وكذلك قرأ ابن هرمز ومجاهد والجحدري ويعقوب، إلا أنهم سكنوا الياء[٣] على وجه الخبر من الله تعالى عن نفسه أنه يفعل ذلك بهم، كأنه قال: وأنا أملي لهم. واختاره أبو حاتم، قال: لأن فتح الهمزة يوهم أن الشيطان يملي لهم، وليس كذلك، فلهذا عدل إلى الضم.

قال المهدوي: ومن قرأ ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ فالفاعل اسم الله تعالى. وقيل الشيطان. واختار أبو عبيد قراءة العامة، قال: لأن المعنى معلوم، لقوله ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾ [الفتح: ٩] رد التسبيح على اسم الله، والتوقير والتعزير على اسم الرسول.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ أي ذلك الإملاء لهم حتى يتمادوا في الكفر بأنهم قالوا، يعني المنافقين واليهود. ﴿لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ وهم المشركون ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أي في مخالفة محمد والتظاهر على عداوته، والقعود عن الجهاد معه وتوهين أمره في السر. وهم إنما قالوا ذلك سرا فأخبر الله نبيه.

وقراءة العامة «أسرارهم» بفتح الهمزة[٤] جمع سر، وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم. وقرأ الكوفيون وابن وثاب والأعمش وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿إِسْرَارَهُمْ﴾ بكسر الهمزة على المصدر، نحو قوله تعالى: ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٩] جُمع لاختلاف ضروب السر.

﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ﴾ أي فكيف تكون حالهم. ﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ أي ضاربين، فهو في موضع الحال. ومعنى الكلام التخويف والتهديد، أي إن تأخر عنهم العذاب فإلى انقضاء العمر. وقد مضى في «الأنفال والنحل». وقال ابن عباس: لا يتوفى أحد على معصية

(١) صحيح: مسلم (٦٥٧) في المساجد ومواضع الصلاة عن جندب بن عبد الله البجلي.
(٢ ـ ٤) قراءات متواترة: تقريب النشر (ص١٧٤).

إلا بضرب شـديد لوجهه وقـفاه. وقيل: ذلك عنـد القتال نصـرة لرسول الله ﷺ، بضرب الملائكة وجوههم عند الطلب وأدبارهم عند الهرب. وقيل: ذلك في القيامة عند سوقهم إلى النار.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ذلك جزاؤهم ﴿بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ﴾ قال ابن عباس: هو كتمانهم ما في التوراة من نعت محمد ﷺ. وإن حملت على المنافقين فهو إشارة إلى ما أضمروا عليه من الكفر. ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ يعني الإيمان. ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي ما عملوه من صدقة وصلة رحم وغير ذلك، على ما تقدم.

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ نفاق وشك، يعني المنافقين ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ الأضغان ما يُضمر من المكروه. واختلف في معناه، فقال السدي: غشهم. وقال ابن عباس: حسدهم. وقال قطرب: عداوتهم، وأنشد قول الشاعر:

قُل لابن هِنْد ما أردتُ بمنطق ... سَاء الصَّديقَ وشيّد الأضغانا

وقيل: أحقادهم. واحدها ضِغن. قال:

وذي ضغن كففتُ النفس عنه

وقد تقدم. وقال عمرو بن كلثوم:

وإن الضغن بعد الضغن يفشو ... عليك ويُخرج الداء الدفينا

قال الجوهريّ: الضغن والضغينة: الحقد. وقد ضَغِن عليه ـ بالكسر ـ ضغناً. وتضاغن القومُ واضْطَغَنُوا: أبطنوا على الأحقاد. واضْطَغَنْت الصبيَّ إذا أخذته تحت حضنك. وأنشد الأحمر:

كأنّه مُضْطَغِنٌ صبيّا

أي حامله في حجره. وقال ابن مقبل:

إذا اضطغنتُ سلاحي عند مَغْرِضها ... ومِرفقٍ كرِئاس السيف إذ شَسَفَا

وفرس ضاغن: لا يعطي ما عنده من الجري إلا بالضرب. والمعنى: أم حسبوا أن لن يظهر الله عداوتهم وحقدهم لأهل الإسلام. ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾ أي لعرفناكهم. قال ابن عباس: وقد عرفه إياهم في سورة «التوبة» [(١)]. تقول العرب: سأريك ما أصنع، أي سأعلمك، ومنه قوله تعالى: ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥] أي بما أعلمك. ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ أي بعلاماتهم. قال أنس: ما خفي على النبي ﷺ بعد هذه الآية أحد من المنافقين، كان يعرفهم بسيماهم. وقد كنا في غزاة وفيها سبعة من المنافقين يشك فيهم الناس، فأصبحوا ذات ليلة وعلى جبهة كل واحد منهم مكتوب: «هذا منافق» فذلك سيماهم [(٢)]. وقال ابن زيد: قدر الله إظهارهم وأمر أن يخرجوا من المسجد فأبوا إلا أن

(١) ضعيف: الطبري (٢٦/ ٦١) من طريق العوفيين، وانظره عند الآية (٦٤).

(٢) رواه البغوي (٧/ ٢٨٩) في تفسيره معلقًا ولم أهتد إليه مسندًا.

يتمسكوا بـ«لا إله إلا الله»، فحقنت دماؤهم ونكحوا وأنكحوا بها. ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ﴾ أي في فحواه ومعناه. ومنه قول الشاعر:

وخيرُ الكلامِ ما كان لَحنا

أي ما عُرف بالمعنى ولم يُصَرَّح به. مأخوذ من اللحن في الإعراب، وهو الذهاب عن الصواب، ومنه قول النبيّ ﷺ: «إنكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض»[١] أي أذهب بها في الجواب لقوّته على تصريف الكلام. أبو زيد: لَحَنْت له - بالفتح - أَلْحَنُ لَحْناً إذا قُلْتَ له قَوْلاً يفهمه عنك ويَخْفَى على غيره. ولَحِنَه هو عنّي - بالكسر - يلحنه لَحْناً أي فهمه. وألحنته أنا إياه، ولاحنت الناس فاطنتهم؛ قال الفَزاريّ:

وحديثٍ أَلَذُّه هو ممــا ... يَنْعَت النَّاعتُون يُـوزَن وزنَا
منطقٌ رائعٌ وتَلْحَنُ أحيا ... ناً وخيرُ الحَديثِ ما كان لحنَا

يريد أنها تتكلم بشيء وهي تريد غيره، وتعرض في حديثها فتزيله عن جهته من فطنتها وذكائها. وقد قال تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾. وقال القتال الكلابي:

ولقد وَحَيْت لكم لكيما تفهموا ... ولَحَنْتُ لحناً ليس بالمرتابِ

وقال مرار الأسدي:

ولحنت لحناً فيه غشٌّ ورابني ... صدودُكِ تُرْضين الوشاةَ الأعاديَا

قال الكلبي: فلم يتكلم بعد نزولها عند النبي ﷺ منافق إلا عرفه. وقيل: كان المنافقون يخاطبون النبي ﷺ بكلام تواضعوه فيما بينهم، والنبي ﷺ يسمع ذلك ويأخذ بالظاهر المعتاد، فنبهه الله تعالى عليه، فكان بعد هذا يعرف المنافقين إذا سمع كلامهم. قال أنس: فلم يخف منافق بعد هذه الآية على رسول الله ﷺ، عرفه الله ذلك بوحي أو علامة عرفها بتعريف الله إياه ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ أي لا يخفى عليه شيء منها[٢].

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ أي نتعبدكم بالشرائع وإن علمنا عواقب الأمور. وقيل: لنعاملنكم معاملة المختبرين ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ عليه. قال ابن عباس: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ حتى نميز. وقال علي رضي الله عنه. ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ حتى نرى. وقد مضى في «البقرة». وقراءة العامة بالنون في ﴿نَبْلُوَنَّكُمْ﴾ و﴿نَعْلَمَ﴾ ﴿وَنَبْلُوَ﴾. وقرأ أبو بكر عن عاصم بالياء فيهن[٣]. وروى رويس عن يعقوب إسكان الواو من «نبلو» على القطع مما قبل[٤]. ونصب الباقون ردا على قوله ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾. وهذا العلم هو العلم الذي يقع به الجزاء، لأنه إنما يجازيهم بأعمالهم لا بعلمه القديم عليهم. فتأويله: حتى نعلم المجاهدين علم شهادة، لأنهم إذا أمروا بالعمل يشهد منهم ما عملوا، فالجزاء بالثواب والعقاب يقع على علم الشهادة. ﴿وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ نختبرها ونظهرها. قال إبراهيم بن الأشعث: كان الفضيل

---

(١) صحيح: وقد سبق.

(٢) البغوي (٧/ ٢٨٩) في تفسيره.

(٣، ٤) قراءتان متواترتان: تقريب النشر (ص١٧٤).

ابن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى وقال: اللهم لا تبتلنا فإنك إذا بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۚ وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٣٢﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يرجع إلى المنافقين أو إلى اليهود. وقال ابن عباس: هم المطعمون يوم بدر[١]. نظيرها ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٦] الآية. ﴿وَشَاقُّوا الرَّسُولَ﴾ أي عادوه وخالفوه. ﴿مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ أي علموا أنه نبي بالحجج والآيات. ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ بكفرهم. ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي ثواب ما عملوه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٣﴾ ﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ لما بين حال الكفار أمر المؤمنين بلزوم الطاعة في أوامره والرسول في سننه. ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ أي حسناتكم بالمعاصي؛ قاله الحسن[٢]. وقال الزهري: بالكبائر[٣]. ابن جريج: بالرياء والسمعة[٤]. وقال مقاتل والثمالي: بالمن، وهو خطاب لمن كان يمن على النبي ﷺ بإسلامه[٥]. وكله متقارب، وقول الحسن يجمعه. وفيه إشارة إلى أن الكبائر تحبط الطاعات، والمعاصي تخرج عن الإيمان.

الثانية: احتج علماؤنا وغيرهم بهذه الآية على أن التحلل من التطوع - صلاة كان أو صوما - بعد التلبس به لا يجوز، لأن فيه إبطال العمل وقد نهى الله عنه. وقال من أجاز ذلك - وهو الإمام الشافعي وغيره: المراد بذلك إبطال ثواب العمل المفروض، فنهي الرجل عن إحباط ثوابه. فأما ما كان نفلا فلا، لأنه ليس واجبا عليه. فإن زعموا أن اللفظ عام فالعام يجوز تخصيصه، ووجه تخصيصه: أن النفل تطوع، والتطوع يقتضي تخييرا. وعن أبي العالية كانوا يرون أنه لا يضر مع الإسلام ذنب، حتى نزلت هذه الآية فخافوا الكبائر أن تحبط الأعمال. وقال مقاتل: يقول الله تعالى إذا عصيتم الرسول فقد أبطلتم أعمالكم.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ﴿٣٤﴾ ﴾

بين أن الاعتبار بالوفاة على الكفر يوجب الخلود في النار. وقد مضى في «البقرة» الكلام فيه. وقيل: إن المراد بالآية أصحاب القليب. وحكمها عام.

﴿ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٥﴾ ﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فلا تَهِنُوا﴾ أي تضعفوا عن القتال. والوهن: الضعف وقد وهن الإنسان ووهنه غيره، يتعدى ولا يتعدى. قال:

---

(١) سبق.

(٢ - ٥) الأقوال كلها غير مسندة عند البغوي (٧/ ٢٩٠) في تفسيره.

إنني لست بموهونٍ فَقِرْ

ووهن أيضا ـ بالكسر ـ وهنا أي ضعف، وقرئ «فما وهنوا» بضم الهاء وكسرها. وقد مضى في «آل عمران».

الثانية: قوله تعالى ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ أي الصلح ﴿وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾ أي وأنتم أعلم بالله منهم. وقيل: وأنتم الأعلون في الحجة. وقيل: المعنى وأنتم الغالبون لأنكم مؤمنون وإن غلبوكم في الظاهر في بعض الأحوال. وقال قتادة: لا تكونوا أول الطائفتين ضرعت إلى صاحبتها (١).

الثالثة: واختلف العلماء في حكمها، فقيل: إنها ناسخة لقوله تعالى ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١]، لأن الله تعالى منع من الميل إلى الصلح إذا لم يكن بالمسلمين حاجة إلى الصلح. وقيل: منسوخة بقوله تعالى ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾. وقيل: هي محكمة. والآيتان نزلتا في وقتين مختلفي الحال. وقيل: إن قوله ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ مخصوص في قوم بأعيانهم، والأخرى عامة. فلا يجوز مهادنة الكفار إلا عند الضرورة، وذلك إذا عجزنا عن مقاومتهم لضعف المسلمين. وقد مضى هذا المعنى مستوفى. ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ أي بالنصر والمعونة، مثل: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ أي لن ينقصكم، عن ابن عباس (٢) وغيره. ومنه الموتور الذي قُتل له قتيل فلم يدرك بدمه، تقول منه: وَتَره يَتِره وَتْرا وَتِرة. ومنه قوله عليه السلام: «من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله» (٣) أي ذهب بهما. وكذلك وتره حقه أي نقصه. وقوله تعالى: ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ أي لن ينتقصكم في أعمالكم، كما تقول: دخلت البيت، وأنت تريد في البيت، قاله الجوهري. الفراء: ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ﴾ هو مشتق من الوتر وهو الفرد، فكان المعنى: ولن يفردكم بغير ثواب.

﴿إِنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ تقدم في «الأنعام» ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ شرط وجوابه. ﴿وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ أي لا يأمركم بإخراج جميعها في الزكاة، بل أمر بإخراج البعض، قاله ابن عيينة وغيره. وقيل: ﴿لَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ لنفسه أو لحاجة منه إليها، إنما يأمركم بالإنفاق في سبيله ليرجع ثوابه إليكم. وقيل: ﴿لَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ إنما يسألكم أمواله، لأنه المالك لها وهو المنعم بإعطائها. وقيل: ولا يسألكم محمد أموالكم أجرا على تبليغ الرسالة. نظيره: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الفرقان: ٥٧] الآية.

قوله تعالى: ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ﴾ يلح عليكم، يقال: أحفى بالمسألة وألحف وألح بمعنى

(١) صحيح: الطبري (٣١٤٩٧، ٣٢٤٩٨) في تفسيره.

(٢) ضعيف: الطبري (٢٦/ ٦٥) في تفسيره من طريق العوفيين.

(٣) متفق عليه: البخاري (٥٥٢) في المناقب، ومسلم (٢٨٨٦) في الفتن وأشراط الساعة، عن نوفل بن معاوية ـ رضي الله عنه.

واحد. والحفي المستقصي في السؤال، وكذلك الإحفاء الاستقصاء في الكلام والمنازعة. ومنه أحفى شاربه أي استقصى في أخذه. ﴿تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ أي يخرج البخل أضغانكم. قال قتادة: قد علم الله أن في سؤال المال خروج الأضغان. وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن محيصن وحميد «وتخْرُج» بتاء مفتوحة وراء مضمومة. ﴿أَضْغَانَكُمْ﴾ بالرفع لكونه الفاعل. وروى الوليد عن يعقوب الحضرمي «ونخرج» بالنون. وأبو معمر عن عبدالوارث عن أبي عمرو «ويخرج» بالرفع في الجيم على القطع والاستئناف والمشهور عنه ﴿وَيُخْرِجْ﴾ كسائر القراء، عطف على ما تقدم.

﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ﴾ أي ها أنتم هؤلاء أيها المؤمنون تدعون ﴿لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي في الجهاد وطريق الخير. ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي على نفسه، أي يمنعها الأجر والثواب. ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ﴾ أي إنه ليس بمحتاج إلى أموالكم. ﴿وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ إليها. ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ أي أطوع لله منكم. «روى الترمذي عن أبي هريرة» قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ قالوا: ومن يستبدل بنا؟ قال: فضرب رسول الله ﷺ على منكب سلمان ثم قال: «هذا وقومه، هذا وقومه» قال: حديث غريب في إسناده مقال[1]. وقد روى عبدالله بن جعفر بن نجيح والد علي بن المديني أيضا هذا الحديث عن العلاء بن عبدالرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال أنس من أصحاب رسول الله ﷺ يا رسول الله، من هؤلاء الذين ذكر الله إن تولينا استبدلوا ثم لا يكونوا أمثالنا؟ قال: وكان سلمان جنب رسول الله ﷺ قال: فضرب رسول الله ﷺ فخذ سلمان، قال: «هذا وأصحابه، والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطا بالثريا لتناوله رجال من فارس»[2]. وقال الحسن: هم العجم. وقال عكرمة: هم فارس والروم. قال المحاسبي: فلا أحد بعد العربي من جميع أجناس الأعاجم أحسن دينا، ولا كانت العلماء منهم إلا الفرس. وقيل: إنهم اليمن، وهم الأنصار؛ قاله شريح بن عبيد. وكذا قال ابن عباس: هم الأنصار. وعنه أنهم الملائكة. وعنه هم التابعون. وقال مجاهد: إنهم من شاء من سائر الناس. قال الطبري: أي في البخل بالإنفاق في سبيل الله. وحكي عن أبي موسى الأشعري أنه لما نزلت هذه الآية فرح بها رسول الله ﷺ وقال: «هي أحب إليّ من الدنيا»[3]. والله أعلم.

ختمت السورة بحمد الله وعونه، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه الأطهار.

---

(١) غريب: الترمذي (٣٢٦٠) في تفسير القرآن وصححه الألباني هناك.

(٢) صحيح: الترمذي (٣٢٦١) في تفسير القرآن وصححه الألباني هناك.

(٣) ضعيف: ولم أهتد إليه مسندًا، انظر: الماوردي (٥/ ٣٠٨) في النكت والعيون.